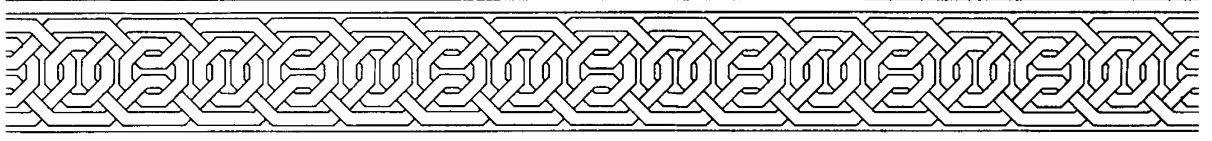




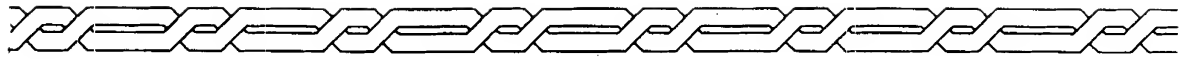
نحو نايح هجري موحّد للدكتور عبد الطّاهي الدّاربي



إذا كانت قضية هلال رمضان قد شغلت الناس غداة تشريع الصيام فان مسألة الاهلة جميعها ، وليس هلال رمضان على الخصوص قد وضعت في المغرب منذ فجر القرن السادس الهجري وفي مستوى الامراء والعلماء .

على طريقة أبيه في أموره كلها ... فظل يرسل المستظهر واستمر هذا يكاتبه ، وكانت الظروف آنذاك تتطلب مثل هذه المشاورات ، فان الغزو الصليبي الذي كان يتهدد المشرق والمغرب على السواء. كان جديرا بتوحيد وجهات النظر ... هناك شيء من خلال تلك الرسائل أثار انتباه العاهل المغربي ، ذلك أن المكاتب البغدادية كانت تحمل تاريخا يختلف عن التاريخ الذي يوجد في الديار المغربية ، وقد (عمل ذلك في قلب الخليفة) على حد تعبير الوثائق التاريخية ، فقد كان الأمير الشاب - فيما يلوح - يستشكل ظهور الهلال ببغداد وعدم ظهوره هنا ... ولم يقف الامر عند حد التساؤل ولكنه تجاوزه الى تكليف وزيره وكاتب ابي القاسم ابن الجد (ت ٥٢٥) باستشارة الفقهاء وأهل العلم حول هذا الاختلاف في

لقد كان السلطان العظيم يوسف بن تاشفين وجه سنة ٤٨٥ بعثة دبلوماسية الى بلاط بغداد لاستمزاغ الرأي مع المستظهر بالله حول تطارح بعض الزعماء في الاندلس على الأجنبي . يبتغون حلفه ضد ابناء جلدتهم ... وكانت تتألف من سفير هو الامام عبد الله بن العربي وكاتب هو نجله القاضي أبو بكر ... نجحت السفارة وعاد الكاتب من المشرق يحمل معه تأييداً لموقف المغرب . كان عبارة عن أربع رسائل : احداها من المستظهر نفسه الى يوسف ابن تاشفين، وثانيهما من وزيره ابن جهير إلى السفير عبد الله ، وثالثها من الامام الغزالي ، والرابعة من العلامة الطرطوشي ... ومنذ هذا التاريخ انتظمت المكاتبات بين زعمي العالم الاسلامي على ذلك العهد : ذلك في بغداد وهذا في مراکش ... ولما توفي يوسف سلك ولده الامير



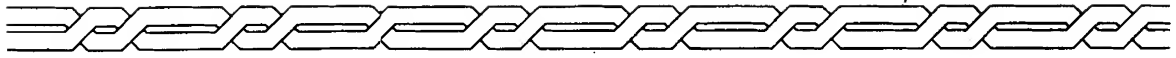
أوائل الشهور وهل له مبرر علمي معقول ، وقام هذا بما عهد به اليه ، فذاكر عددا من فقهاء المغرب لكنه لم يجد جوابا شافيا يستطيع أن يرفعه الى علم الامير حتى تناهت اليه الاخبار ذات يوم وهو بمراكش سنة عشر وخمسة بتوالي الغارات على شرق الاندلس فجاز اليها جوازه الثالث اواخر المحرم سنة ٥١١ . وقد اراد أبو القاسم ابن الجدفي هذه الاثناء أن يسمع الامير علي بن يوسف ملخص ما سمع هو من العلماء فدعا الى جمع ضم أعيانهم وأعلامهم كان ممن حضره باشبيلية أحد رجال الكمال والارتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها : مالك بن وهيب (ت ٥٢٥) ... وقد كان الامير يصغي لابي القاسم ابن الجد وهو يطرح السؤال امام هؤلاء الفقهاء الذين كان فيهم جمع من اشبيلية وجمع من قرطبة ، قال لهم : (نجد تاريخ بغداد يسبق تاريخنا بيوم ويومين) فكانت هذه اول مناظرة جماعية ...

أهمية السؤال :

يرتكز تاريخنا نحن على القمر فمعه نسير ، وبه نهتدي ، وعن طريقة نعلم عدد السنين والحساب ، ومن هناك كان الاهتمام بأمر الالهة ليس ثانويا ولكنه بالغ الاهمية ، ليس فقط لان الالهة تحدد شهور صومنا وافطارنا ، ولكن لان جل التشريعات الاسلامية تتوقف على ذلك ، خذ لك مثلاً ميقات صلاة العيدين ، وصدقة الفطر ، مغرفة سن الشاة واسنان الابل والبق في الزكاة ، والحج ، ووقوف عرفة ،

والاضحية والعقيقة ، والاجال ، والسلم ، والمساواة ، والاجازة واللقطة ، والايلاء ، والكفارة بالصوم ، والعدة والاستبراء والرضاع وكسوة الزوجة الى غير ذلك من المعاملات والعبادات على السواء .. وليس هذا بدعا فنحن مرتبطون فعلا في عبادتنا وفي معاملتنا بشيء اسمه الوقت ولن يكون هذا الوقت غير تاريخ يحدد الهلال بدايته ونهايته ، فكل معرفة بمدخل الشهور تعني ضبط الامور والبعد بها عن التردد والاضطراب وهكذا فليس الانشغال بهذه المسألة من باب الترفيه والتلهي ولكنها دلالة على الرغبة في اعطاء الاشياء مقاديرها الحقيقية ... علاقة هذه المناقشة بالتاريخ ...

ولاجل الحديث عن ذلك ينبغي أن نلاحظ من الآن وحسب ما يتوفر لدينا من دلائل انها أي تلك المناقشة ظلت متأثرة بالتاريخ ولهذا فلا مناص من دراستها مقترنة بالتاريخ مرتبطة به .. أريد أن أقول ان الحديث عن هذه القضية تطور نصا ومضمونا عبر السنين فالتدليل على الهلال في القرن الاول من لدن بعض الفقهاء كان يختلف عنه في القرن الثاني عندما ظهر أبو جعفر المنصور الذي كان يعنى بالفقه والفلك معاً ... والحديث عنه في هذا القرن اختلف عنه في القرن الثالث أيام المأمون ابن هرون الرشيد الذي قرب اليه المعدلين والفقهاء وجمع بين المحدثين والفلاسفة ، وهكذا أيضا عند القرن الثامن يوم نادى تقى الدين السبكي بالالتفات الى الحساب كعنصر يمكن



أن يظن في الشهادة المربية .. وهكذا دواليك حتى القرن الثالث عشر . وتاريخ المدن التي كانت مركزا للعلماء الذين تناولوا المناقشة في الموضوع ، ووضع العلماء أنفسهم من حيث حياتهم الاجتماعية : خلودهم للسكون في عقر بيوتهم ، تحركهم هنا وهناك ومن حيث الوظائف التي زاولوها ودرجة احتكاكهم بأفراد مجتمعاتهم ومشاكل أمتهم .. كل هذا له دخل في الموضوع ... وليست الأهلة الا مثالا عابرا فان كثيرا من القضايا اذا لم تعالج من زاوية التاريخ أيضا تظل عرضة للمناقشة الدائرة .. أو ليس الفقه الا تعبيراً عن المحيط الاجتماعي وتصويراً للآفاق التي نشاهدها ! وموضوعنا بالذات سجل التاريخ عنه أول مناظرة منذ أيام سيدنا عبد الله بن عمر وسيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهم .. وفي أيام القاضي ابن سريج (ت ٣٠٦) بل المناظرة اتسعت وأمتت تتناول مسألة التقويم الهجري كله بين جناحي العالم الاسلامي .

الشهر بين العلم والفقه :

وفي ابرزما يضافى الضوء على هذه المناقشة معرفة كل من وجهة النظر العلمية ووجهة النظر الفقهية حول تحديد الشهر مبدأ ونهاية وما يترتب على كلا النظريتين ، وذلك حتى نفتح عيوننا على الآفاق التي ينبغي علينا أن نصلها عندما نعلم رأيا ما من الآراء .. ففما يتعلق بالحساب فان الشهر عند رجال الحياة محسوب ابتداء من اللحظة التي يتم فيها

انفصال القمر عن الدائرة الشعاعية ويستمر الى ان يجتمع معها مرة ثانية وينفصل وهلم .. فهذا الاجتماع وهذا الافتراق يتم كما قلنا كل ٢٩ يوما وكذا كسورا . أما فيما ينوب الفقه فان تعاليمه واضحة في أن مبدا الشهر يعتبر بكل وضوح من الوقت الذي يرى فيه الهلال عند الغروب وأن نهايته تتحقق عندما نرى الهلال مرة ثانية عند غروب اليوم التاسع والعشرين أو عند ما يكمل العدد ثلاثين في حالة تعذر رؤيته ، فهو متأرجح بين تسعة وعشرين يوما وبين ثلاثين بصرف النظر عن الكسور .

ماذا يترتب على التعريفين :

ويترتب على اختلاف النظريتين أمور لا ينبغي أن نغض الطرف عنها .. لقد علمنا أن الشهر عند رجال الحياة يبدأ دائما قبل الفقرة التي يبدأ فيها عند رجال الفقه ونتيجة لذلك فهو ينتهي قبل ، وهكذا فعندما نشاهد هلال شهر ما من الشهور على الافق ، فمعنى ذلك علمياً أن الشهر ابتدأ قبل هذا الوقت لأن اجتماع النيرين يتم فعلاً قبل ذلك الوقت ؟ وعليه فان ما نعهده حسب رؤيتنا أول الشهر قد يكون في نظر العلم ثاني الشهر ، وعلى هذا أيضا فان اليوم الذي نكمل به الثلاثين قد يكون في نظر العلم هو أول أيام الشهر الجديد ... وينبغي التنبيه الى أن العلم لا يفرق بين أن يتم ذلك الاجتماع والافتراق ليلاً أو نهاراً فلو فرضنا أنه حصل قبيل الفجر فان اليوم الاول من الشهر يكون بعيد الفجر مباشرة ، ولو انه حصل اللقاء

لكن الطريقة المثلى التي هي أكثر دقة وأكثر مطابقة هي طريقة (حساب الرؤية) ، ومن خصائص هذه الطريقة أنها تتعقب حركة الهلال بعد انفصاله عن الشمس وذلك لتضبط الميعاد الذي يمكن فيه ظهوره في الافق مع غروب اليوم المقصود .. وبدراستها يتضح أنها طريقة حكيمة ورشيدة ، فليست كالأولى تكفي باجتماع النيرين ، وليست كالثانية تعتمد فقط على التلفيق بين الجداول ولكنها تؤمن بالرؤية كمبدأ وتتوسل لتسهيلها للناس .. وهذه الطريقة مناهج متعددة يسلكها الفلكيون ، كل حسب اجتهاده وحسب استعداده ، وفي المحققين من يجمع بين عدد من الطرق امعانا في التأكد وزيادة في الثبوت ...

لقد عالج المنجمون الاقدمون من المسلمين الحديث عن حدود الرؤية .. وكان أهم حد عنوا به هو ما يسمى عندهم قوس الظهور ، ونعتقد أن أبرز من بسط الموضوع من علماء المسلمين هو محمد جابر البتاني (ت ٣١٧) سلطان المنجمين والمؤقتين الذي ترجمت مؤلفاته الى اللاتينية في العصر الوسيط .. لقد كان يرى أن قوس الظهور هو الاصل الذي عليه المدار فمتى ظهر ظهر الهلال والافلا .. ويتعلق الامر بانفصال القمر وابتعاده عن المركز الذي يكون فيه متوسطا بين الارض والشمس الى حيث يمكن ملاحظة جزء منه من طرف النظارة .

لنفرض أن ملاحظاً وقف في مكان (أ)،

والفراق أثناء النهار فان الشهر يبدأ في الدقيقة الموالية لهذه الاثناء .. نرى أن مداخل الشهور علمياً تتقدم مداخلها شرعياً وأنها في الاعتبار الاول تنقيد برؤية بينا هي في الاعتبار الثاني خاضعة لها ...

لمعرفة مداخل الشهور :

واعتقد انه لا مناص من استشارة أزيد لآراء سائر علماء الفلك تحقيقاً للغرض من تحليلاتنا القابلة للنصوص الشرعية .. أن تلك الاستشارة ستعيننا على تفهم تعاليم الاسلام في اطمنان .

يتجلى من استعراضنا للوسائل التي يعتمدها العلماء لمعرفة اوائل الشهور أن هنالك طرقاً تتبع هنا وهناك ...

وبعد أن نشير لما كنا ألمحنا اليه من أن الشهر في النظرية العلمية البحتة يبدأ منذ اللحظة التي يتم فيها اجتماع النيرين وأنه يستمر الى أن يجتمع مرة اخرى ، نذكر أن هناك طريقة دأب عليها الذين يميلون للاخذ بالطريق الاسهل لمعرفة مداخل الشهور وهي طريقة الجداول المتداولة أو طريق (حساب العلامة) كما يسميها أهل الفن . والاعتماد على هذه الطريقة أيضاً يناهى الاخذ بالنصوص الخاصة بالرؤية هذا الى أنها تفترض أن يكون رمضان من ثلاثين يوماً باستمرار ، الامر الذي لا يتفق مع النص بالاضافة الى انه لا يطابق واقع الرؤية إذ أن هذه الجداول تقضي أحياناً بتقدم مدخل الشهر على الوقت الحقيقي ، وأحياناً بتأخره ...



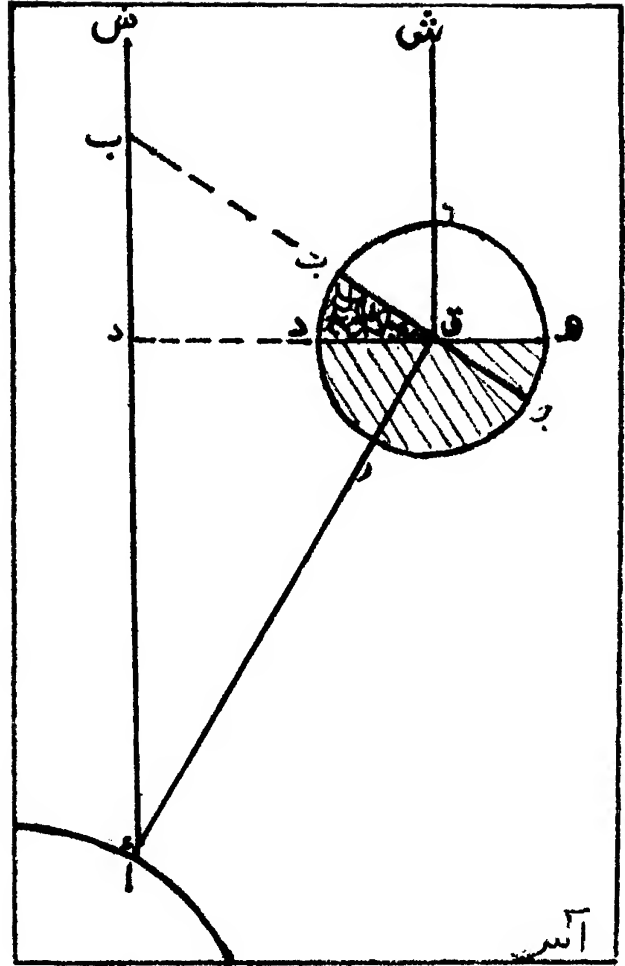
مرت ٢٤ ساعة تقريباً على اجتماع النيرين وانفصالها .

هذا الشرط الاساسي ويأتي بعد هذا حد آخر لرؤية الهلال في نظره : ذلك ان يمكث الهلال بعد غروب الشمس على الاقل مقدار ثمانية وأربعين دقيقة .

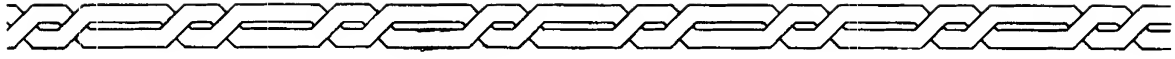
وبعد البتاني البيروني (ت ٤٠٠) الذي تمسك باثنتي عشرة درجة كحد تقريبي للإهلال .. ثم ورد نصير الطوسي (ت ٦٧٢) الذي اشترط للرؤية أن يكون البعد اكثر من عشر درجات ولن تبع هذين من أمثال ابن البنا (ت ٧٢١) وأبن الشاطر (ت ٧٧٧) آراء مماثلة أما الشهاب الرشي (ت ٨٣٦) فقد ركز على حدين : المكث ، والنور فان كان مكث الهلال يصل ٤٨ دقيقة ، وبلغ حجم نوره ٤٠ دقيقة (أو ثلثي اصبع كما يعبر الشهاب) أقول ان توفر هذان الحدان رؤي الهلال ، والا امتنعت رؤيته .. فان تحقق احدهما فقط كانت الرؤية عسيرة . وللوصول الى حدود الرؤية جميعها : قوس الظهور ، المكث ، النور لابد من التعديل والحساب لما بعد غروب الشمس بنحو نصف ساعة ليوم ٢٩ من الشهر .. ويمر الحاسب بمراحل دقيقة جدا ولكنها تؤدي في الاخير الى ضبط وضعية الهلال عند مغيب الشمس ..

الحالات الثلاث :

ولأجل أن نعرف الى أي حد ينبغي أن نستفيد من العلم لابد أن نتناول حالات



الذي يشير للارض ، فان (ش) تعنى اتجاه الشمس ، و(ق) يعني القمر ، و(ق ش) تعني الخط الذي يجمع مركز دائرة القمر بالشمس ، ونظرا لبعد المسافة بين الارض والشمس نسبيا فان المفروض أن يكون (أ ش) و (ق ش) متوازيين . النصف المضيء من القمر هو (د و هـ) المتصل بالخط القائم : (ق ش) لكن الجانب المضيء فعلا من النصف هو فقط القوس (ب ق د) الذي يتخذ شكل هلال مقداره يعادل (ش ق أ) . فالزاوية (ش أ ق) - وهي قوس الظهور - ينبغي - رصد البتاني ان لا تقل هذه القوس عن ١٢ درجة و ١١ دقيقة حتى تمكن رؤية الهلال الامر الذي لا يتحقق الا اذا



ثلاثاً ممكناً على ضوء ما سبق :

الحالة الاولى أن يثبت العلم أن اجتماع النيرين أحدهما بالآخر تم بعد غروب يوم ٢٩ من الشهر . الحالة الثانية أن يثبت العلم أن اجتماعهما وافتراقهما تم قبل الغروب ولكن بمدة غير كافية قطعاً لظهوره .

الحالة الثالثة أن يثبت العلم أن اجتماعهما تم قبل الغروب بمدة تكفي قطعاً لظهوره . الحالة الاولى : ان يثبت عند العلم أن اجتماع القمرين وافتراقهما تم بعد غروب الشمس ، فالיום الموالي يعتبر عند أهل الحياة بداية الشهر على ما أسلفنا ، وبالمثل وضحاها ، بينا هو عند رجال الفقه ليس الانتمه للشهر المنصرم .. وهنا موقفنا واضح : الفقه لا يقر نظرية أهل الحساب وينبغي أن نذكر هنا أن كل إجماع يروى عن الفقهاء في موضوع عدم اعتبار قول المنجمين محمول عند المحققين من العلماء على هذه الصورة والملحظ واضح ، وهو أن الامر يتعلق برؤية ممكنة للهلال ، وطالما أن هذه الرؤية مستحيلة فالشهر عندنا أيضا غير موجود ، وقد ربط المشرع عليه الصلوات صومنا بأعلام واضحة وأمور ظاهرة لا تحته يستوي في معرفتها جماهير الناس ولذلك فلم يقدّر وزنا لنظرية أهل الحساب هذه بان الاجتماع كاف لوجوده في نفس الامر بل اعتبر الوجود في نفس الامر مشروط بشيء ثان هو إمكان الرؤية ، ومن ثمة كان الشهر عندنا هو ما بين ظهور الهلالين لا افتراق النيرين .. ومن ثمة أيضا كان الشهر

عندنا أحيانا من تسعة وعشرين وأحيانا من ثلاثين على ما تقدم ...

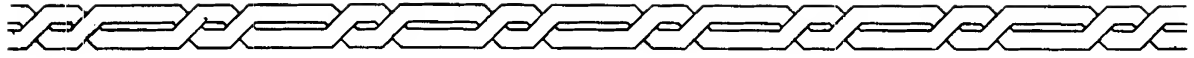
الحالة الثانية : أن يثبت عند العلم أن اجتماع النيرين وافتراقهما تم قبل غروب الشمس ولكن بمدة غير كافية لظهور الهلال قطعاً للناس .. هنا جانبان في الموضوع ، الجانب المرفوض والجانب المستغل ، فالجانب الاول أننا ما نزال على رأينا من أن امكان الرؤية شرط لازم ولذلك فلا وجود عندنا للشهر لكن الجانب المقبول هو أننا نعلم نتائج العلم هذه لتتحفظ بها إزاء شهادة قد ترد علينا رواية انها رأت الهلال ، ترون اننا أخذنا من العلم ما يتوافق ومبدأ الاسلام ، ولهذا رفضنا منه الجانب الذي لا يراه الفقه .. وليس من ضير في أن نستعين بالحساب من هذه الناحية .. ونسمح لانفسنا بالاسترسال في الحديث عن هذه الحالة :

لقد عقد الامام تقي الدين السبكي فصلا خاصا لهذه المسألة في فتاويه : (من شهد برؤية الهلال واقتضى الحساب تكذيبه) والامام السبكي معروف بسعة اطلاعه وبديع صياغته ، وهو الى هذا عالم ضليع ومحدث مدقق وأصولي بارع ورحالة مستفيد ورياضي متقن ، انعكست اضواء ثقافته على مؤلفاته ، وقد تقلب في وظائف سامية مكنته من الاحتكاك بقضايا الناس حيث كان قاضي القضاء بدمشق لمدة طويلة وحيث اضيفت اليه الخطابة بالجامع

الاموي وتولى التدريس بدار الحديث وكان يتتبع سير الأهله شهراً شهراً طيلة عشرين عيداً ..

ان الاسلوب الذي عالج به هذه الصورة بالذات والذي يكتسي حلة من الالحاح زائدة ينم بحق عن مدى الاهتمام الذي يوليه للحساب حينما لا يصطدم بمبدأ ولا يهدد قاعدة .. ان الحساب حينما يدل بدلالات قطعية موثوق بها على أن الهلال لا يمكن أن يرى ، ففي هذه الحالة لا يمكن افتراض رؤيتنا له حساً لانه مستحيل ، ولهذا فلو اخبرنا مخبر بأنه رآه فالذي يتجه عندنا - يقول السبكي - حمل الخبر على الغلط أو الكذب لان دلالة الحساب قطعية والشهادة ظنية ، والظن لا يعارض القطع فضلاً عن أن يقدم عليه .. وشرط البينة أن يكون ما شهدت به ممكناً .. فاذا علم أن اشارات الحساب تقطع بعدم امكان رؤيته استحال القبول شرعا لان مضمون المشهود به مستحيل والشرع لا يقر بالمستحيلات ولم يرد نص في الاسلام بأن الشاهدين تقبل شهادتهما سواء كان المشهود به صحيحاً أو باطلاً .. وهكذا فلا يترتب وجوب الصوم على مجرد الخبر أو الشهادة ، فالواجب علينا أن نتبين في قبول الخبر حتى نعلم حقيقته أولاً .. ولا شك أن بعض من شهد الهلال قد تكون شهادته بدافع من غرض أو طمع .. والحقيقة أن هناك أكثر من سبب يدعو بعض الناس الى تقديم شهادة من هذا النوع وسنسمع مرة ثانية لقاضي القضاة

الامام السبكي ليحدثنا عن تجاربه الخاصة ، قال رحمه الله : ان بعض من يشهد الهلال قد لا يراه ويشته عليه أو يرى ما يظنه هلالاً وهو ليس بهلال أو تريه عيونه ما لم يره أو يؤدي الشهادة بعد ايام وتلبس عليه الليلة التي رأى فيها الهلال ، أو يكون جهله عظيماً يحمله على أن يعتقد أن في حمله الناس على الصيام أجراً له ومثاباً عند الله أو يكون ممن يقصد اثبات عدالته فيتخذ ذلك وسيلته لتزكيته وقبوله عند المحاكم .. قال الامام السبكي : (وكل هذه الانواع ، قد رأيناها وسمعناها) فيجب على الحاكم اذا عرف من نفسه أو بخبر من يثق به أن الحساب يدل على عدم امكان الرؤية أن لا يقبل تلك الشهادة ولا يثبت الهلال بها ولا يحكم بمقتضاها ويستصحب الاصل في بقاء الشهر فانه - اي الاستصحاب - دليل شرعي حتى يثبت خلافه فان تجوز الغلط أو الكذب على الشاهدين أولى من تجوز انخرام سير منازل الشمس والقمر .. وحق القاضي - يقول السبكي - أن يتيقظ لذلك وأن لا يتسرع الى قبول الشاهدين حتى يتبين حال ما شهدا به امكاناً وعدمه ، وهل بصرهما يقتضي ذلك أم لا وهل هما مما يشته فيها أم لا ؟ ولو كان كل ما يشهد به شاهد ، يثبت عند القاضي لاصبح القضاء في متناول كل الناس ! لكن لا بد من نظر لاجله جعل القاضي ، فاذا قال القاضي : (ثبت عندي) فمعناه انه استوفى كل تلك الاحوال ...



لقد فضلت أن اقتبس جل ما أورده
الامام السبكي هنا لاعبر بالقلم العريض ، كما
يقولون، عن الاهتمام الذي اخذ الائمة يولونه
للحساب وعن الحذر البالغ الذي يقابل به
المحققون اقوال الناس عندما لا تتطابق ومنطق
العلم والرقم .

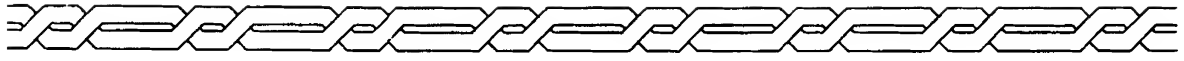
والحقيقة أن نظرية الامام السبكي هذه
كانت منه في عصره بمثابة (ثورة) وقد حركت
كثيرا من الناس بين مؤيد ومندد ، وقد قرأنا
فتاوى حول الموضوع هنا في المغرب ايضا كانت
تبادل بين فقهاء يشحنونها حججا وبراهين
وفقهاء آخرين يفرغون تلك الحجج
ويفجرونها ...

الحالة الثالثة : أما الحالة الثالثة -
وهذا محور نقاشنا - فهي أن يثبت العلم أن
اجتماع القمرين وافتراقهما تم بعد غروب
الشمس بمدة تكفي لرؤية الهلال .. وهنا
سننظر : ان كانت أحوال الجو تساعد فالعمل
على ما وصل اليه رصد الناس ، لكنه اذا ما
تعذرت الرؤية لسبب من الاسباب : سحب
متلبذ أو بخار متصاعد ، هنا نرى الفقهاء
فريقين : الاول : يقول باكمال الشهر .. والثاني
يقول بتحكيم الحساب ، ولكي نكون على
بصيرة تامة نتقدم بالحديثين الاساسيين الواردين
في الموضوع : الحديث الاول : عن سيدنا
عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ
قال : (لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا

حتى تروه فان غم عليكم فاقدروا له) .
الحديث الثاني : عن سيدنا عبد الله بن عباس
رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (لا تصوموا
حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان غم
عليكم فأكملوا العدد ثلاثين) .

الفريق الاول : المكملون :

على رأي هؤلاء يكون معنى الجملة
الاولى في الحديثين الشريفين (لا تصوموا حتى
تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه) ان الصوم
معلق بالرؤية فمتى حصلت كان ومتى لم
تحصل لم يكن ، هي وسيلته الوحيدة ولا بديل
لها ، ولا شك أننا ندرك من منطوق هذه الجملة
ذاتها ودون الالتجاء الى ما بعدها ، معنى ظلياً
ثانياً وهو أننا اذا لم نره لعارض ما من
العوارض فعلياً ان ننتظر بالصوم اليوم الموالي
أي أننا نكمل ثلاثين يوماً وهذا المعنى المفهوم
شاء المشرع عليه الصلوات إمعاناً في البيان -
أن ينص عليه بجملة ثانية فقال على رواية ابن
عمر فان غم عليكم فاقدروا له ، وقال على
رواية ابن عباس (فان غم عليكم فأكملوا
العدد ثلاثين) فمعنى الجملة في الرواية الاولى
أنه اذا حال بينكم وبين الهلال غيم أو شبهه
فاقدروا له ، دون تحديد نوع التقدير ، ومعناها
في الرواية الثانية التصريح الفصيح بأن لا
معنى لقوله : (اقدروا له) الا إكمال العدد
ثلاثين .. وبهذا يكون حديث ابن عباس مفسراً
للقصد من حديث ابن عمر أي ان ذلك الإجمال
في الحديث السابق كشف عنه الحديث

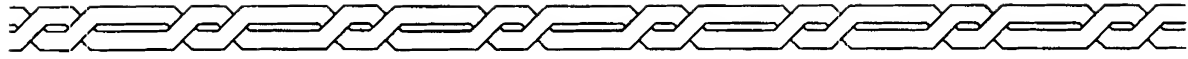


اللاحق ، ولا شك أن علماء الحديث لا ينشدون أحسن من تفسير وارد بوارد آخر من جنسه وفصيلته .. وقد حرص بعض الذين ساندوا هذا الرأي على الاستدلال بمثل ما ورد في كلام الشيخ ابن الصلاح (ت ٦٤٣) في معرض تعليق له من أن معرفة الحساب أمر دقيق يختص بمعرفة (أحاديث الناس ..) ويمثل ما ورد في كلام الامام النووي (ت ٦٧٧) من (أن سبب عدم البناء على حساب المنجمين يرجع لكون الحساب حذسا وتخمينيا ليس الا) وكذا بمثل ما ورد في تفسير الامام القسطلاني (ت ٩٢٣) اننا لم نكلف في تعريف مواقيت صومنا ولا عباداتنا بما نحتاج فيه الى معرفة الحساب وانما ربطت عباداتنا باعلام واضحة ، وأمور ظاهرة يستوي في معرفتها الحساب وغير الحساب ، وأخيرا بمثل ما نقله الامام الزرقاني (ت ١٠٩٩) : (ولا يصح أن المراد بقوله فاقدروا له) حساب المنجمين لان الناس لو كلفوا ذلك لشق عليهم ، لان الحساب لا يعرفه إلا أفراد والشرع انما يكلف الناس بما يعرفه جماهيرهم ...

الفريق الثاني : الحاسبون

وبعد هذا ننتقل الى وجهة نظر الفريق الثاني ، يرى هذا الفريق أن لقول الرسول: فان غم عليكم فاقدروا له معنى غير معنى اكمال الثلاثين ، ومعناه في نظرهم : اعتمدوا على ما يعطيه التقدير أي الحساب ، فلو أنه أي الحساب دل على أن الرؤية ممكنة كان على المسلمين أن يصوموا ولو

أنه أي التقدير والحساب دل على العكس لكان العكس هو المطلوب ، نرى ان الامر يتعلق عند هؤلاء بامكان رؤية الهلال وليس الى الرؤية ذاتها ، وكما اعتمدنا الحساب في مواقيت صلواتنا وفي اشياء اخرى ينبغي ان نعتمده في الهلال ، او ليس سير القمر والشمس مضبوطا بحسبان ؟ اوليست المنازل تسير حسب تقدير ؟ عرفنا الفريق الاول يعتبر أن هذا الشق الثاني في الحديث الشريف: « فان غم عليكم ... » زيد فقط لتأكيد ما فهم سلفا من الشق الاول ، لكن هذا الفريق يعتبره انشاء لحكم جديد في قضية جديدة . الاستعانة بالعلم عند عجز الحاسة ، قال مطرف بن الشخير البصري (ت ٨٧) وهو من كبار التابعين معنى (فاقدروا له) الرجوع الى الحساب ، وقال الحنابلة معناه (قدره تحت السحاب) وفسره الامام ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦) بالرجوع الى الحساب أيضا وقد ذهب طائفة من الشيعة الى اعتماد أهل التسيير عند التعذر .. وقال القاضي ابن سريج البغدادي (ت ٣٠٦) ان معناه قدره بحسب المنازل ، ونقل الباجي (ت ٣٧٤) عن الداودي مثل هذا القول ، ونقل بعضهم عن الامام الشافعي تشجيعه على الالتجاء الى الحساب عند التعذر وقد افاد الامام السبكي أيضا (ت ٧٥٥) أن الشريعة لا ترد على من قال بجواز الصوم بالحساب وانها لا تبطل مقتضيات الحساب ولكنها تخالف فقط النظرية البحتة لعلم الهيئة في تحديد الشهر بأنه المدة ما بين



افتراق النيرين لحين اجتماعهما مرة ثانية..

ويصوب العلامة الزركشي (ت ٧٩٤) أن المنجم اذا عمل بحسابه فانه قد رفع التبعة عن نفسه وأجزأه ذلك عن فرضه ، على أن هناك طائفة عززت الاعتماد على الحساب بما يفهم من الآية الشريفة : (وبالنجم هم يهتدون) فان فيها تدليلاً على الالتفات إلى إشارات النجوم وحسابها اذا ما لزم الامر ،

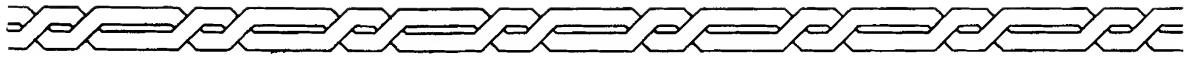
واذا كان هذا رأي هذا الفريق فان عالم بغداد القاضي ابن سريح (ت ٣٠٦) لم يتردد في ان يذكر ان هناك موردين مختلفين للحديثين الشريفين حديث (فاقدروا له) وحديث (فاكملوا العدد ثلاثين) وبيان ذلك أن الاول كان خطاباً لمن خصه الله بهذا العلم بينما الحديث الثاني خطاباً للعامة أي ان هناك فرقاً بين ملاحظة السير العادي للاهله الذي يدركه عامة الناس وبين معرفة السير الحقيقي المبني على الحساب الدقيق الذي يستأثر به خاصة الناس ، فلكل مقام والامر يختلف بحسب استعداد الناس وقابليتهم ، اذا كانوا لا يتوفرون على وسائل تمكنهم من استشفاف ما تحت السحاب بوسيلة علمية ما ، فان الله اذن لهم في تكميل العدد ثلاثين هذا سلوك من ابن سريح لا يهمل الحساب وهو في الوقت ذاته يعمل برواية حديث ابن عباس

ولماذا صام ابن عمر يوم الشك ؟

على أن هناك ملاحظة أخرى ينبغي

أن لا نغفلها تلك أن الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن عمر يرى أن على المسلمين أن يصبحوا صياماً اذا حال السحاب دون رؤية الهلال عشية اليوم التاسع والعشرين .. وهذا اليوم هو الذي يعرف في كتب الفقه بيوم الشك.. ترى ماذا كان باعث سيدنا ابن عمر على صوم هذا اليوم وماذا كان موقفه من رواية (فأكملوا العدد ثلاثين) لقد روى عنه أنه كان يرى أن معنى فاقدروا له أصبحوا صائمين ونعتقد أن هذا الفهم من سيدنا عبد الله بن عمر كان أول حركة اجتهاد في هذا الموضوع من صحابي جليل ، اجتهاد لم يقتصر على ترديد تفسير أو تأويل ولكنه تعداه الى سلوك طريق تنم عن أنه لا يطمئن كل الاطمئنان الى ما فهم من الحديث من اكمال العدد ثلاثين وتنم عن أنه - ولو لم ينقل عنه رأي صريح حول الاعتماد على تقدير الحساب - يفضل جانب الاحتياط وهذا من الآثار العملية التي يمكن ان يستأنس بها من يميل الى عدم الاخذ باكمال العدد ثلاثين أخذاً مطلقاً.....

ولسنا بصدد الحديث عن تضعيف ملحظ عبد الله بن عمر .. ولا كذلك بصدد الحديث عن أنه يقتصر على أول رمضان مثلاً ، ولكننا فقط بصدد أن نعرف السر في اختيار الرجل لنفسه هذا المذهب بالذات .. أليس لأنه كان لا يرى أن تصرفنا سحابة عابرة عن الاخذ بجانب الحذر ؟



بين المكملين والحاسبين :

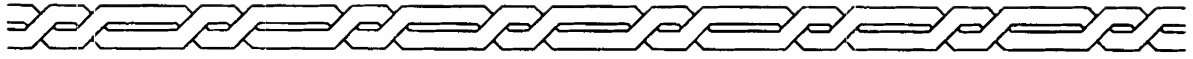
والان وبعد أن حاولنا تقديم وجهة نظر كل فريق : الذين يرون تكميل العدد ثلاثين ، والذين يحكمون الحساب ، والذين يميزون بين حال وحال والذين يحتاطون .. بعد أن حاولنا ذلك ، نحن مقتنعون سلفاً من اننا سنسمع - كما سمع الناس من ذي قبل - عن آراء تناصر هذا الفريق أو ذلك .. وقد تتجاوز تلك المناصرة حدود المناقضة الموضوعية للتعريض بالناس والنيل منهم ، سنسمع عن ناس يرددون تعقيب ابن سيرين (ت ١١٠) على قول مطرف : (كان أفضل له - أي لابن المطرف - لو لم يقله) ويقول آخرون عن ابن قتيبة (انه ليس ممن يعرج عليه في مثل هذا) وسوف لا نعدم من يذكر بما علق به ابن العربي (ت ٦٣٨) رأي ابن سريج من أنه (بعيد عن النبلاء) وسيروي آخرون أن المعروف عن الامام الشافعي هو غير ما نقله عنه ابن خويز منداد وان ما نقل عن الامام السبكي فيه مبالغة ، وفي الناس من سيقصر الاهتداء في الآية الشريفة (وبالنجم هم يهتدون) على الاهتداء بها في البر والبحر ومن جهة أخرى فلا بد ان تجد من يعقب على هؤلاء المعقبين بأن مطرف وابن قتيبة وابن سريج والسبكي وامثالهم ممن كانوا تيجان علم وعمل في زمانهم ما كان لهم أبداً أن يتجاوزوا الحدود في اجتهادهم لولا ما رأوه مما يقتضي ذلك ، ولا بد بعد هذا من أن تجد من يرمي الذين قصروا الآية (وبالنجم هم يهتدون)

على ما قصروها عليه ، يرميهم بالتحكم وبالتكلف ، وأخيراً سنتسمع من بعض الذين يعتمدون الحساب عند تعذر الرؤية تركيزهم على أن بعض الذين زهدوا في الحساب كانوا يستصعبونه - أو استطاع (المكملون) وهم يشرحون وجهة نظرهم أن يحرموا أنفسهم من الاعتراف بان الدوافع لتأويلاتهم كانت تتلخص في عسر الحساب ودقته ؟

نعم كل ما قيل يقال وسيقال امر مرتقب في موضوع كهذا . لكن أملنا الآن أن تخرج من طور التردد الى طور التجديد .. الى الالتفات الى الواقع الذي تعيشه الاسرة الاسلامية اليوم .

الرؤية بين الحاسة والوسيلة العلمية :

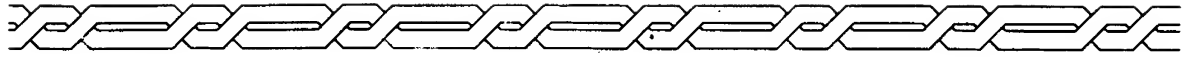
لقد أناط الرسول عليه الصلوات هذ العادة بداية ونهاية برؤية الهلال ، (والرؤية) حدث كسائر الأحداث قد تتم عن طريق البصر المجرد كما أنها قد تتم بواسطة .. فعندما أرى وعلى عيني نظارتان أقول : انني رأيت وعندما أرى بعيني مباشرة أقول انني رأيت ، كلاهما رؤية ، واعتقد أن في اطلاق الرؤية من قبل المشرع إشعاراً منه بأن الغرض هو حصولها بأي طريق كان وانه لا مانع عنده في التوسل لهذه الرؤية بطريق ما .. ومعنى هذا ان الشارع قصد فقط الى التأكد والتحقق والتثبت .. وهذا فعلا هو الشأن في كل تشريع يبنيه الاسلام على تركية الحواس ، خذ لك مثلاً : ذكروا أن فيا



يعرف به المتناولون للخمر أن تشم أفواههم ..
تري لو استعنا بالآلة التي تعتمد عليها
إدارات الامن اليوم في اكتشاف
السكرارى ، هذه الآلة التي يكفى أن
يتنفس عليها المتهم لتعرف بدقة درجة
سكره ونسبة الكحول فيا تناوله من مشروب ،
تري ماذا يقول فقهاؤنا هنا ؟ هل سيظلون
مفضلين الاعتماد على أنوف البوليس أم أنهم
سيبتهجون لهذه الوسطة التي لا تخطيء .. خذ
لك مثلا آخر يتعلق بالحاسة أيضا : نعرف أنه
كان على المحتسب أن يستعين بخبراء لمعرفة
البضاعات المغشوشة ولذلك فقد كان يختار
(مستذوقين) يعتمدهم لمعرفة المحتالين، فبماذا
يتقبل الفقهاء الآلات والمعايير التي تعطي في
سرعة ودقة نتائج خلط السمن بالبطاطة؟ أو
الحليب بالماء مثلا ؟ .. وخذ لك مثلا بعد هذا لو
استطعنا استعمال الاجهزة الالكترونية في
حساباتنا الشخصية ، فماذا عسانا نقول في
الاستعانة للوصول الى الفروض التي شرع الله
في الميراث من نصف وربع وسدس وثمان ؟ هل
سنصر على الاكتفاء بأدمغتنا التي أثخننتها
الاشغال وأرهقتها الاعمال ؟

الواقع أن ربط الأحكام بالحواس يعني
الوصول الى غرض من شأن تلك الحواس أن
تؤدي اليه ، ولهذا فلو وصلنا الى ذلك الهدف
بطريق ما فلا ضير ، ومن هنا فضل الفقهاء اذا
كان الامر يتعلق بحاسة أن يقع الاختيار على
الفرد الاكمل في تلك الحاسة امعانا في مناقشة

التأكد والتحقق والتثبت بمعنى اننا نفضل
بالتأكيد قوى البصر في مراقبة الهلال على
متوسطه . أريد أن أؤكد أن الاستعانة
بالنظارات يعتبر في نظرنا مثل الاستعانة
بالاماكن العالية التي دأب أسلافنا على قصدها
في مثل هذه المناسبات ومثل البروج التي
شيدها جدودنا في جل العواصم لرصد الأهلة ،
كل ذلك لتقريب البعيد وتوضيح المبهم وتجلية
الخفي لتكون عبادة الناس في الارض وفقا لما
دلت عليه إشارات السماء ومن اجل كل هذا فلو
تمكنا عن طريق المرصد أن نضبط الهلال لكان
من حقنا أن نصوم لرؤيته ، وعندما نقول
المرصد نقصد الى المرصد في سائر مراحل
تطوراته عبر التاريخ الى الان والى ما يجد بعد
الان فمن المرحلة التي كان المرصد فيها يقتصر
على برج عال الى المرحلة التي تزيدت فيه
المراسد بالتلسكوب الى المرحلة الحالية التي
تميزت بالدقة في أنواع الآلات التي تخترق
السحب .. الملبدة لتكشف عما وراءها . لقد
ذكرت قول الحنابلة في تفسير الحديث الشريف
(فاقدروا له) لقد قالوا ان معناه قدره تحت
السحاب وها نحن قد توفرنا اليوم على ما يرفع
درجة علمنا من تقديره تحت السحاب الى
التأكد من حقيقته تحت السحاب ، لقد توفرنا
على العلم توفرنا على الوسيلة وحتى لو قلنا ان
النص منوط بالرؤية المجردة فان واقع الامر
آنذاك كان لا يمكن معه أكثر من ذلك كما ان
واقع الامر بالنسبة للصلاة كان لا يمكن بغير



ظلال القوائم ، ومعلوم أنه يجوز التصرف في الاحكام اذا كانت قد بنيت على واقع أن الائمة الذين اجتهدوا في الوصول الى معاني تلك الاثار الشريفة ، كانوا متأثرين بكل تأكيد - بما يقع عليه حسهم - بامكانيات مستفتيهم ولا شك أن حسنا اليوم يقع على اشياء غير التي كان يقع عليها بالأمس فهل لا يتأثر الحكم نتيجة لذلك وهل سنرضى برفض نتائج العلم وهي انما نخدم لنا الغرض الذي من اجله نسعى ؟

وهكذا فان الاستعانة بالعلم ، بالحساب ، بالمراسد على رؤية الهلال أمر لا يجافي الاسلام بل ان الاسلام يرحب بكل وسيلة من شأنها أن تسهل على الناس الأخذ بتعاليم دينهم ومن شأنها أن تنحي عنهم الاضطراب والشكوك ...

وسائلنا بين الامس واليوم .

وسائلنا بالامس منذ عهد البتاني ظلت تسدى إلينا معروفاً لا ينسى على مرّ الأيام بيد أن تقديراتنا الفنية القديمة تعتبر في نظر الفلكيين المحدثين سخية : لابد أن تمر ٢٤ ساعة على اجتماع النيرين ، لابد أن يمكث الهلال في الافق ٤٨ دقيقة، لابد أن يبلغ حجم نوره ثلثي أصبع ، مقاييس كانت في القديم لتمكين عامة

الناس من ملاحظة الهلال ، ولكنها مع الوسائل المتطورة والمتجددة باستمرار أمست مبالغأفيها فلو استطاع العلم أن يثبت رؤيته بالرغم من أنه لم يمر على انفصاله ٢٤ ساعة كاملة .. ولو استطاع أن يثبت رؤيته بالرغم من أن مكثه في الافق لم يبلغ ٤٨ دقيقة .. بالرغم من أن حجم نوره لم يصل الى ثلثي اصبع لو استطاع العلم أن يتأكد من رؤيته مع غروب الشمس مباشرة لو ثبت ذلك فأى مس يكون هناك مبدأ الرؤية ؟ ان العلم يستطيع أن يحدد مواعيد ظهور الهلال بالساعة والدقيقة والثانية لمئات السنين ولمختلف المناطق في العالم إن الوسائل الاولى ستظل مصدر اعزازنا وتقديرنا ولكننا لا نريد أن نتنكر لوسائل العصر الحديث ، لقد جاهد اجدادنا بالقوس والنبل ولكننا لا نعتمد اليوم على تلك الوسائل وحج اجدادنا بيت الله وصلينا الامس معتمدين على ظلال القوائم واليوم نصلي معتمدين على الآلات فأى ضير في إدخال تعديل على مقاديرنا بالأمس ومقارنتها مع مقاييس اليوم ؟

* * *

د . عبد الهادي التازي